# "البدو والحضر وعلاقتهما بالوطن في الشِّعر الجزائري الحديث" قصيدة "ما في البداوة عيب" للأمير عبد القادر-نموذجا-

# " Countryside and urban areas and their relationship to homeland in modern Algerian poetry The case of the Emir Abd-el-Kader's poem "There is no shame in nomadism."

د. نذيرة عمارة *


| تاريخ الإرسال: 2023/06/30 | تاريخ القبول: 2024/10/17 | تاريخ النشر: 2026/06/10 |
|---|---|---|


**الملخص:**

البدو والحضر؛ لفظان يدُلاّنِ على المكان؛ وُظِّفَا في الشّعر العربي قديما وحديثا، والشّعر الجزائري امتداد له وجزء منه له سماته وخصائصه. يهدِفُ المقال إلى بيانِ قيمةِ المكان لأنّهُ يحتلُّ منزلةً خاصّةً في تشكيل العمل الأدبي؛ لتعلُّقِ الشَّاعِر بالأرض التي أنبتته؛ ومن الأمكنة التي تجلَّت في الشّعر الجزائري الحديث هي "البدو والحضر"، اللّذان وظّفهما "الأمير عبد القادر الجزائري" في قصيدة "ما في البداوة عيب". تكمن أهميّة هذا البحث؛ في محاولة تسليط الضّوء على علاقة المكانيْن بالإنسان، حيث يمثِّلُ البَدْوُ حالة الارتباط الدّائم برحم الأمّ –الأرض والوطن– والحَضَرُ هو الشّعور الدّاخلي المعادي للمستعمِر الفرنسي الذي أسقطه "عبد القادر الحسني" على هذه المنطقة.

**الكلمات المفتاحية**: البدو والحضر، الأرض والوطن، الشّعر الجزائري الحديث، الأمير عبد القادر الحسني الجزائري، الاستعمار الفرنسي.

**Abstract:**

*Countryside and urban area refer to the place; they have been employed in old and modern Arabic poetry, and the Algerian poetry is an extension and part of it with same attributes and characteristics.The article aims to demonstrate the value of the place because it occupies a special rank*

* جامعة عبد الحميد بن باديس- مستغانم، nadinfarah27@gmail.com

*in the genesis of literary work; Due to the attachment of the poet to thehomeland that gave rise to him; One of the places that manifested itself in modern Algerian poetry is "Countryside and urban area", which the Emir Abdelkader AL-Jazairiemployed in the poem "There's no shame in the countryside".The importance of this research lies; In an attempt to shed light on the relationship between the two places and the human being, the countryside represents the state of permanent association with the mother's womb -- land and homeland -- and the urban area is the inner anti-French colonial feeling that Abdelkader Al-Hassani projected over this area.*

***Keywords:*** *Countryside and Urban area, Land and Homeland, Modern Algerian Poetry, Emir Abd-el-Kader El-hassani, Algeria, French colonialism.*

**المؤلف المرسل: نذيرة عمارة، nadinfarah27@gmail.com**

*** *** ***

**1. مقدّمة:**

المكان الطبيعي؛ كان مُلْهِمًا بالِغ التأثير في نفسيّة الشّاعر العربي، يَستَلهِم من صحرائه وريّاضه... حيثّ يجعله وسيلة لبيان أفكاره الفلسفيّة وإيصال رسالته للقارئ...

الشّاعر لا يكتب لنفسه فحسب؛ إذا عُدَّ الشّعر تمثيل ومرآة صادقة تعكس دواخله ونفسيّته؛ وهو في هذه الحال، يَعْتَبِرُ الطّبيعة التي تحيط به، مكانًا لمعرفة الإنسان وذاته، وهي صورة كاملة الأجزاء، لأنّه حاول تجسيد حالاته المختلفة، ولمْ يحاولْ تصوير الطّبيعة إلاّ فيما يتعلّق بتكميل أجزاء الصورة الكليّة.

قصيدة الأمير "ما في البداوة عيب"، التي نظَّمها – كما ورد في الدّيوان إجابة عن سؤال وَجَّهَهُ إليه بعض أمراء فرنسا عندما كان في قصر "أمبواز"... وهو: - هل البدو أفضل أم الحضر[1] ؟_ أكثر تمثيلا للأحاسيس الوجوديّة التي تُعبِّر عن مسألة المصير الإنساني في رحلة الحياة. قد دفع هذا التصوّر والأسباب إلى طرح إشكاليّة الدّراسة:

- كيف وظّف الأمير المكانيْن (البدو والحضر) في شعره ؟

- وما علاقتهما بالوطن ؟

الشّعر الجزائري الحديث هو جزء من الشِّعر العربي مع انفراده بخصوصيّاته؛ لمْ يُسْتَعْمَلْ فيه المكان استعمالا عاديًّا، وإنّما هو توظيف رمزي لمعانٍ يريد الشّاعر تمريرها، حيث تزدحِمُ فيه العواطف والذّكريات وتحضر فيه الشّخصيات وتتجلىّ الأحداث... هو المكان المنشود الذي يَسْتَدْعِي حضورَ أمكنة أخرى تتعلَّق بالإنسان والحيوان، والحياة، والموت، والحب الذي يمثّل حبّ الوطن وبالمقابل الكره الذي يجسّد كراهيّة الاستعمارات وخاصّة أنّ البلدان العربيّة والجزائر – آنئذ – كانت تَرْزَحُ، تحت نيرها.

للوقوف على المكانين (البدو والحضر) في شعر الأمير وعلاقتهما بالوطن؛ قدّمت للموضوع، ثمّ حاولتُ أنْ أُبَيّنّ –ما أمكنني– إسقاطات الأمير الشعوريّة على "البدو والحضر" وحقيقة تجسيدهما للعوالم الخفيّة للشّاعر، وأعقبْتُ ذلك بشرح علاقتهما بالوطن، وختمت بخلاصة فيها نتائج البحث.

أمّا عن المنهج المعتمد في هذه الدّراسة فهو المنهج "التّحليلي الوصْفي" لتقديم الصُّوَّرِ التي رسمها المكان وعلاقتها بالقضيّة التي تؤرِّق الأمير؛ وهي الوطن المسلوب، الوطن البعيد، الوطن المغتصَب...

**2. البدو والحضر في قصيدة الأمير عبد القادر:**

يبدو الصراع بين البداوة والحضارة، ويقابل كلٌّ منهما الآخر؛ فالبداوة تتعامل مع كلّ ما هو طبيعي لمْ تطُلْهُ يد الإنسان بتغيِّير، أمّا الحضارة فترمز إلى كل ما أبدعه يد الإنسان.

في تعريف "البدو و الحضر" وجدت أنَّ "ابن خلدون" قدْ حَدَّهُما..."ومن هذا العمران ما يكون بدويًا وهو الذي يكون في الضواحي وفي الجبال وفي الحَلَلِ المنتجعة في القفار وأطراف الرّمال، ومنه ما يكون حضريًّا وهو الذي بالأمصار والقرى والمدن للاعتصام بها والتحصّن بجدرانها"[8]. وعلى الرغم من صعوبة ظروف البدو تميزت حياتهم بالبساطة وتعاملوا مع البيئة المحيطة بهم باحترام، وامتازوا بمكارم الأخلاق كإكرام الضّيف، والأمانة، والشّجاعة.... أمّا الحضر فاتّسم نمط معيشتهم بحبِّ العيْشِ في التّفنن في سعةٍ ويُسْرٍ.

كما يعني المصطلحان عند "السيد محمود شكري الألوسي البغدادي" «البادية هي الأرض التي ليس فيها بناء من دور وقصور وغير ذلك، وهي البدو أيضا والنّسبة إليه بدوي... والبداوة الإقامة بالبادية وهو خلاف الحضارة، والمبدي خلاف المحضر»[9]، كما يعتبر البدو أصلٌ للحضر؛ فالحضر تطور طبيعي للبدو، فهم جماعة من البدو فَضَّلتْ التَّنقُّل والهجرة إلى أن وصلت إلى حالة الاستقرار، لمواكبة الحياة الجديدة التي انتهوا إليها.

**1.2 البدو:**

بادية "القَيْطَنَةِ"؛ جزء من بدو الجزائر بشساعتها وبساطتها، تعكس الحياة هناك، حيث تأثر الأمير بالمكان، فتشكّلت هويّته وأصالته، وبدت صوّر الرّيف من خلال الطّبيعة الحاضنة للإنسان من طريق استرجاعها عبر ذكرياته لمكان الطفولة فمنحته الأجواء الحالمة...

لمّا عانقت نفس الأمير مظاهر البدو (الصّحراء، الروض، البسيطة...) حيث بدا ذلك جليّا في شعره، جعل بعض الدّارسين لشعره يجزم أنّه من روّاد نزعة البداوة في الشعر الحديث: «... وأنا أعتقد شخصيّا من باب الجزم أنّ الأمير عبد القادر أحد روّاد نزعة البداوة في الشّعر العربي الحديث، هذه النّزعة التي تقوم على تمجيد الذّات والقبيلة ووصف الجمال الطّبيعي...»[12]. هذا لأنّ نفس الأمير تربّتْ في أحضان المروج الخضراء الشّاسعة، وجُبِلَتْ على معانقة الجمال أينما حلّ.

تولَّدَ هذا البوْح الشِّعري متأثّرًا بمعالم بيئته الطّبيعيّة الصّرْفة؛ المتقاطع (أي: البوح الشّعري) مع نظيره العربي القديم الذي كانتْ منطلقاته الأولى في مكان مشابهٍ منطبعٍ هو الآخر بمميّزات الطّبيعية هنالك [13]. فالعربي -بطبعه- مأخوذٌ بجمال الطّبيعة يرتع في حناياها، ويتمتّع بالعيش فيها، ويتغنّى بنضارتها.

فتأثير طبيعة الرّيف وما تمتلكه من مناظر خلاّبة في شعر الأمير؛ بجد فيها تعلُّق الشّاعر بالأماكن الطبيعيّة بشكل مباشر؛ توحي بشدّة الارتباط والانتماء لوطن، استدعته حال أَسْرِ الأمير التي أصبحت تسيطر عليه[14]، فكانت تلك الأماكن الملاذ الآمن والحصن المنيع للشاعر.

نزوع الأمير إلى فضاء البادية ومكوّنات البيئة البدويّة يجسّد رغبته الملحّة في حماية القيّم الأخلاقيّة التي يُؤمن بها، وتأثير هذه البيئة على نُبْل الأخلاق لديه، وفي هذا يقول الدكتور "محمد بشير بويجرة": «... ولمْ تبقَ هذه القيّم في إطار السّلوك الملحوظ، وفي مستوى العلاقات النّفعيّة والوجوديّة بين الأمير وبين البيئة البدويّة فحسب بل تغلغلتْ تأثيرات ذلك إلى أخلاط الخلق لديه...»[15]. وذلك ضروري لمن تشبّعت روحه بصوّر الطّبيعة الحالمة البكر، وامتزجتْ نفسهُ بمزيج طيبها.

من خلال قصيدة "ما في البداوة عيب"؛ تتجسّد معالم الأمكنة البدويّة من صحارٍ، وروضٍ، وبسيطةٍ، وجوٍّ... فقد كان لها حضور مكاني واجتماعي لهيمنتها على طبيعة الحياة اليوميّة. حيث قال[16]:

لَوْ كُنْتَ تَعْلَم مَا فِي البَدْوِ تَعْذِرُنِي  لَكِنْ جَهَلْتَ وَكَمْ فِي الجَهْلِ منَ ضَرَرِ

**- الصحراء:**

هذا المكان ارتكز عليه الشّعراء قديما وحديثا لتناول قضاياهم والتّعبير عن تجاربهم،

لَوْ كُنْتَ أَصْبَحْتَ فِي الصَّحْرَاءِ مُرْتقِيًّا  بِسَاطَ رَمْلٍ بِهِ الحَصْبَاءُ كَالدُّرَرِ

وفيها يقول الشاعر[17]:

أَوْ جُلْتَ فِي رَوْضَةٍ قَدْ رَاقَ مَنْظَرُهَا  بِكُلِّ لَوْنٍ جَمِيلٍ شَيِّقٍ عَطِرِ
نَسْتَنْشِقُ نَسِيمًا طَابَ مُنْشَقًّا  يَزِيدُ فِي الرُّوحِ، وَلَمْ يَمْرُرْ عَلى قَذَرِ
رَأَيْتَ فِي كُلِّ وَجْهٍ مِنْ بَسَائِطِهَا  سَرْبًا الوَحْشُ يَرْعَى أَطْيَبَ الشَجَرِ
أَوْ كُنْتَ فِي صُبْحِ لَيْلٍ هَاجَ هَاتِنَهُ  عَلَوْتَ فِي مَرْقَبٍ، أَوْ جُلْتَ بِالنَّظَرِ
فَيَا لَهَا وَقْفَةً لمَ،تبْقِ مِنْ حُزْنِ  فِي قَلْبِ مُضْنِي وَلاَ كَدَا لِذِي ضَجَرِ

يتميّز هذا المكان بالرّحابة والإضاءة وعلوّ الهمّة ومكارم الأخلاق، لارتباط الإنسان فيها بالمكان الأصلي الذي أنْبَتَهُ، ارتباط شجاعة وفروسيّة والصّبر أدّى به إلى خلق نوع من المعاشرة والألفة، على الرّغم من صعوبة المراس، بلْ وصل به الحدّ إلى التّغنّي بجمالها ودعوة غيره لزيارتها والاستمتاع بمنظرها؛ وهذا ما حصل مع الأمير.

بذلك يكون قد عبّر عن هويّته التي تتمثّل عدُّتها في الإبل والصّحراء والقفار من جهة، وما تمتلك من مقوّمات في المدافعة والقتال [18]... للغازي القادم.

**- الرّوض:**

الرّوض مكان شاعري موحٍ وملهم، يقصده الشّاعر كيما يستريح، يسرح بخياله، يتحرر من جبروت الواقع الذي يكابد محنه وشدائده، وفي هذا قال الشّاعر [19]:

أَوْ جُلْتَ فِي رَوْضَةٍ قَدْ رَاقَ مَنْظَرُهَا ... بِكُلِّ لَوْنٍ جَمِيلٍ شَيِّقٍ عَطِرِ
نَسْتَنْشِقُ نَسِيمًا طَابَ مُنْشَقًّا ... يَزِيدُ فِي الرُّوحِ، وَلَمْ يَمْرُرْ عَلى قَذَرِ
رَأَيْتَ فِي كُلِّ وَجْهٍ مِنْ بَسَائِطِهَا ... سَرْبًا الوَحْشُ يَرْعَى أَطْيَبَ الشَجَرِ
أَوْ كُنْتَ فِي صُبْحِ لَيْلٍ هَاجَ هَاتِنَهُ ... عَلَوْتَ فِي مَرْقَبٍ، أَوْ جُلْتَ بِالنَّظَرِ
فَيَا لَهَا وَقْفَةً لمَ تبْقِ مِنْ حُزْنٍ ... فِي قَلْبِ مُضْنِي وَلاَ كَدَا لِذِي ضَجَرِ

يوظف الشّاعر في هذه الأبيات ألفاظا تتسم بطابعها المكاني الجمالي مثل (الرّوض والبسائط...) مخبرًا على هذه الوقائع، التي عاشها في هذه المواقع، التي مثّلت الوسط السّاحر الذي يأسر نفسه.

من خلال تلك الألفاظ التي استعملها أضفى على المكان طابعه الواقعي بصيغة لا تمثل وجوده المحسوس، بل بالمخيّلة [20] التي تحيطها بهالة من الألوان، والأصوات، والرّوائح...

كما أنّه ينبئ عن أسباب النمو والينعان، فيما يُعْتَقَدُ أنّه مثيل لصورة الوطن المغتصب ومعادلا لاغترابه، فيرسل صورة تلك الأمثلة الطبيعيّة حيّة للمتلقّي تارة ويتغنّى بحسّها حينا آخر[21]، ويعتمد في ذلك على الاسترجاع؛ لأنّها لمْ تبقَ موجودة في حاضره ولنْ تكونَ في مستقبله؛ ليستثمِر الشّاعر عناصر الطّبيعة في شعره ولا ينظر إليها، كوجود

مجرّد، وإنّما يوظِّفُها لتنبئ بقيمة المكان، وهذه الصِّلة تجسِّد تعلُّق الإنسان بالوطن والوجود والكون معا، والأبيات هي [22]:

نُبَاكِرُ الصَيْدَ أَحْيَانًا فَنَبْغَتُهُ ... فَالصَّيْدُ مَدَى الأَوْقَاتِ فِي ذعْرِ
يَوْمَ الرَّحِيلِ إِذَا شُدَّتْ هَوَادِجُنَا ... شَقَائِق عَمَهَا مُزْنُ مِنَ المَطَرِ
تَمْشِي الحُدَاةُ مِنْ خَلْفِهَا زَحَلٌ ... أَشْهَى مِنَ النَايِ وَالسَنْطِيرِ وَالوَتَرِ
وَنَحْنُ فَوْقَ جِيَادِ الخَيْلِ نَرْكُضُهَا ... شَلِيلَهَا زِينَةَ الأَكْفَالِ وَالحَضَرِ
نُطَارِدُ الوَحْش وَالغِزْلاَن نَلْحَقُهَا ... عَلَى البِعَادِ وَمَا تَنْجُو مِنَ الضَمَرِ
نَرُوحُ لِلْحَيّ لَيْلاً بَعْدَمَا نَزَلُوا ... مَنَازِلاً مَاهَا لَطَخٌ مِنَ الوَضَرِ
نُلْقِي الخِيَّامَ وَقَدْ صُفَّتْ بِهَا- فَعَدَتْ ... مِثْلُ السَّمَاءِ زَهَتْ بِالأَنْجُمِ الزَّهَرِ

صوّر حيّة متحرّكة في المكان الفسيح التي تضطَرم لأجله نفْس الأمير نارًا متأجّجة؛ حسرة على ما فقَد وما ترَك ممّا اعتاد ممارسته في أزهى وأبهى أيّامه التي لمْ يبقَ له منها إلاّ الذِّكر. وأمام هذا يتمنّى الأمير أنْ ينْشُطَ إلى الرّحيل قبل الرّحيل، مرتميًّا في أحضان هذا المكان ينعم فيه بالرَّاحة والطُّمأنينة...

**2.2 الحضر (المدينة):**

قابلتْ نظرة الشّاعر عبد القادر للبدو، المكان المحبوب لديْه كونه مرتع صباه والذِّكريات الجميلة، نظرة أخرى توحي بالنّفور؛ نظرته إلى المدينة، متمثِّلة في تصوير الشّاعر للحَضَرِ، المكان الممقوت فقد كانتْ صورته، تشير إلى عدم الارتياح والاطمئنان له. وفي شأن الحضر، يقول الأمير[23]:

يَا عَاذِرًا لاِمْرِئٍ قَدْ هَامَ فِي الحَضَرِ ... وَعَاذِلاً لِمُحِبّ البَدْوِ وَالقَفَرِ
لاَ تَذُمَنَّ بُيُوتًا قَدْ خَفَّ مَحْمَلُهَا ... وَتَمْدَحَنَّ بُيُوتَ الطِّينِ وَالحَجَرِ
وَصِحَّةُ الأَجْسَامِ فِيهَا غَيْرُ خَافِيَّةِ ... وَالعَيْبُ وَالدَّاءُ مَقْصُورٌ عَلَى الحَضَرِ

الحضر عند الأمير؛ لا يمثِّل المكان المُعاب لدَيْه؛ بقدر ما يمثِّل فلسفته في النّظر إلى هذا المحيط وصعوبة التأقلُم معه، كونه يحمل قيَمًا مغايِرةً لواقع الأمير المُعاش، وهو بذلك لا ينظر نظرة دونيّة لمعالم الحضارة الموجودة فيه، فالنّبي -صلى الله عليه وسلم- هاجر إليها ووجد فيها النُّصرة والتأييد، والنّبي إدريس -عليه السّلام- أوّل من أسّسها وخطّ سيّاستها... بل توالي الاستعمارات عليها والتي عاثتْ فيها فسادًا وسلبتْ خيرات الباديّة... وأسرّه في فرنسا ورفضه التّمليك فيها[24]؛ جعله يذيق ذرعًا بها وتشمئزُّ نفسه من قبحها، ورفضُها هو رفض غدر الاستعمار وسلبه... أي: رفضه رذائل الأخلاق التي تأباها نفسه وانتصاره لفضائل الأخلاق التي تربي عليها.

يبدو أنّ "عبد القادر الجزائري" مفتون بحبِّ البدو على عادة أغلب العرب قديما، وكأنّهم يقرنون مكارم الأخلاق النّابعة من سجاياهم بمناظر الطّبيعة الجميلة كما خلقها الله "ولمَّا كان سُكْنى الباديّة يقتضي صيّانة العزّ والشّرف رجّحها غالب العرب على الحضر، وكثُر حنينهم إليها، وذكر وَحْشَها وطيرْها وريَّاضها ونبتها وشجرها وأغوارها وأنجادها وريَّاحها وميّاهها، ولا يزالون يفخرون في شعرهم بسكناها»[25]. فإنّ البادية ببساطتها وتلقائيّتها تظلُّ أكثرَ استلهاما واستقطابا للأرواح التي عشقت وتيرتها؛ كما أنّ التّكوينَ الرّوحي العميق للإنسان يظلّ وفيًّا للترانيم الأولى التي تشبّعت بها روحه.

### 3. البدو والحضر وعلاقتهما بالوطن في قصيدة الأمير:

المكان في الشِّعر الجزائري الحديث عموما وعند الأمير خاصّة له أكثر من معنى، فهو الذّات المفجوعة بفقْدِ الوطن، وهو الوطن بملامحه وقيّمه، وهو البعاد عن الوطن والتّوق الملحُّ إلى العودة إليه.

#### 1.3 علاقة البدو بالوطن:

كان منطلق الشّاعر إلى الماضي، يأمل عيشه مجدّدًا في المستقبل، والعنصر الفاعل الذي شدّ نفسه للكشف عن المأمول الذي سرعان ما اكتشف أنّه لا مناصّ منه لأنّه عاهد جنيرالات فرنسا بعدم العودة إلى الجزائر؛ هو إطلاق العنان لخياله ليجنح

بعيدًا عن الواقع المرّ، يلتمس من الحلم فرصة الهروب من المجهول القادم، والارتماء مجدّدًا في أحضان المكان الجميل، لعلّ نفسه تشفى وجراحه تلتئم.

هذا الصّراع الذي جسّده الشّاعر في شعره بين مكانيْن أحدهما مألوف وآخر عدائي؛ من شأنه أنْ يخفِّفَ من قمّة الأسى التي بلغها بفقدانه لمنْبتِه الطَّبيعي ومن شأنه أنْ يُبهِجَ نفْسه بذكر المحاسن الطبيعيّة فيه حيث عبّر "غاستون باشلار": «إنّ نوعيْ المكان: المكان الأليف والمكان الخارجي، يظلان يشجّعان بعضهما في نموّهما. لتحديد المكان الذي عشناه كمكان مؤثر عاطفيا لا يعني أنْ نغوصَ إلى جذور أحلام المكان...»[26]. وهذه الألفة لدى الأمير أعلنت عن التفضيّة والتحرّر... «والحقّ أنّه مهمًّا كان التَّأثير العاطفي الذي يلوّن مكانا، سواء كان حزينا أو مضجرًا، فما دام قد تَمّ التّعبير عنه شعريّا، فإنّ الحزن يتناقص ويخفّ الضجر»[27]، كما أعْلنَتْ عن المكان الحميم للشّاعر والذي يتمثّل في "وطنه": «هذه الفاعليّة التي تتّسم بها الشّاعريّة المكانيّة والتي تتوجّه من الألفة العميقة إلى المدى اللاّنهائي، متّحدة في تماهي متماثل تُشعِرنا بالفخامة تنبعث في داخلنا، وكما قال ريكله: "عبر كلّ كائن إنساني ينفتح مكان فريدحميم على العالم..."»[28]. ممّا يجعلنا نستشفّ الأمر ذاته مع صاحب الإمارة من خلال شعره الذي تنبض كلماته بمعاني الودّ والإخلاص للوطن الحبيب الذي دافع عنه لسنوات طوائل وخرج منه وهو لا يَأْمَلُ أنْ يعود إليه.

الأماكن المذكورة في شعر الأمير (البدو، الصحراء، الروض، البسيطة، السماء، الجو...) هي امتداد يكوّن جزءا واحدًا من مكان واحد، هو "الوطن"، يقول برادلي: «يظهر لنا منذ الوهلة الأولى أنّ كل ما هو ممتدّ يكون جزءًا من مكان واحد وأنّ الأمكنة عبارة عن موضوعات ماديّة مترابطة»[29]. تلكم هي إذًا المحطّات التي أتَى على ذكرها الأمير في قصيدته –وربّما- لمْ يَدُرْ في خَلَدِهِ أنّه سيأتي عليه يوم يفارقها ويفتقدها، ولأنّ ملامحها تراءت له في مخيّلتِهِ؛ هَمَّ بذكْرِها وتِعْداد محاسنها، على الرّغم من أنَّ التذكّر في مواقف كهذه صعب؛ لكن ما عساه يفعل الرّجل (أي: عبد القادر) غير أنْ يُواسيَ نفسه بجمع شتاتها من جرّاء تغنّيه بها في القصيدة المرشّحة للدّراسة.

**2.3 علاقة الحضر بالوطن:**

أما عن المكان المقابل، ما كان ليحبَّه ويفضِّله؛ ولو كان في باريس لأنّه فَقَدَ عزّه وملكه، وسلّم لقضاء الله وقدره، ونَقْلُهُ إلى باريس لمْ يكنْ بإرادته؛ بل كان نقضا للعهد، ووصمة عار وخزي لأكبر إمبراطورية استعمارية، تدَّعِي امتلاكها لمعالم الحضارة آنذاك؛ لكنّ الأمير لم يَعْدُدْ ذلك ذُلاً وهوانًا، "وعبد القادر لا يخفي أنّه فقد عزّه في الحضر، وإنّما يعلنه رسائل ويوميّات وحوارًا وشعرًا وشواهد من الشّعر"[30]. مُلقِّنًا بذلك العدوّ الدّرس الذي لا ينبغي أنْ ينساه وهو ضرورة الوفاء بالعهود، لأنّه ما أراد أنْ يحلّ ضيفا ببلدهم؛ بل قرّر أنْ يعيش في بلد عربي.

فالمدينة لدى كثير من الشّعراء إحساس بالضّياع، والضّيق، والقلق، والملل، والحيرة، نتيجة الانكسارات التي تعرّضوا لها فكان تعبيرهم عن استهجانها وكُرْهِهَا صُرَاحٌ...[31]. لِمَا كابدوه من الهمِّ ومن مرارة الألم؛ حسب

التّجارب التي مرّوا بها.

انصرف عن المدينة التي لا تهدأ ولا تترك مجالا للتأمّل والسّروح الفكري الهادئ، ولا تحمل تلك القيّم الأخلاقية والدّينيّة التي تشرّبها الأمير، وذلك لتوالي الاستعمارات عليها وإحلال الفساد فيها، وذا الموقف يذكِّر بموقف شهير حدث مع "ميسون بنت بحدل" التي تزوَّجت ونُقِلَتْ "لحاضرة الشّام" ورَفَضَتْ طيب العيش فيها[32]، وحنّت إلى الباديّة، وربّما كان ذلك خوفًا على القيّم الأخلاقيّة التي عهدتها فيها.

وِفْقَ ما تقدّم؛ نجد أنّ علاقة البدو بالوطن هي علاقة اعتزاز وعلاقة المدينة بالوطن هي علاقة استهجان. كما أنّ الشعراء -من بعد الأمير عبد القادر- مجّدوا "المكان البدوي" على "المكان الحضري"؛ ومنهم "محمد العيد آل خليفة"، في قصيدته "جمال الباديّة". والأبيات:[33]

حيّتكَ في البدوِ كُلُّ الكائناتِ به ... الرّيح عازفةٌ والرّوضُ صفَّاقُ

والحقلُ محتفلُ الأشجارِ منْ طرَبِ ... تشدُو وتهفُو بهِ ورقُ وأوراقُ

والنّهْرُ في جنباتِ السّفح منبسطٌ ... والماءُ في جنباتِ النَّهْرِ رقراقُ

البدوُ في الّيل يبدُو زاهدًا وَرِعًا ... لهُ إلى اللهِ إخْباتُ وإطْراقُ
انْزِلْ إلينَا قليلاً نصحَبْ زَمنًا ... فكلّنا لجمالِ البدوِ عشّاقُ
دعِ الحَواضِرَ لا يغرُرْكَ زُخْرفها ... فجَوّهَا قاتِمٌ كالغاز خنّاقُ
واغْشَ البوادِي تنْعمْ في مرابِعِهَا ... ويُخْطِؤُك إعْسار وإملاقُ
عيشُ البداوي نضيرٌ لا نظيرَ لهُ ... وجَوُّها لعضال الدّاء تِرْياقُ

من المعقول أن يكون ميله إلى المكان الأوّل هو نصرة القضيّة الجزائريّة (جمال بلده لولا وجود الاستعمار)، وميْله عن المكان الثّاني هو الجزائر المستعمرة (أفسد الاستعمار جمالها بما ألحقه بها وبشعبها من دمار وخراب).

**4. خاتمة:**

يميل الإنسان أكثر إلى البدو؛ لأنَّ نفْسَهُ مطْبوعةٌ على كلّ ما هو طبيعي وبسيط على حساب الحضر الذي يطغى عليه إبداع الإنسان وتصميمه لمرافقه وأرجائه، فالمكان سواء أكان بدوا أو حضرا؛ ملْهِمُ الشُّعراء قديما وحديثا وقدْ تجلّتْ معالِمُهُ في شعْرِ الأمير عبد القادر من خلال قصيدة "ما في البداوة عيْب"، حيث ارتبط البدو عنده بالوطن المحبوب، كما تَعَلَّقَتْ المدينة بالنّفس الحزينة على فَقْدِ الوطن.

بعد عرضِ ملخّصٍ للبحْث خلصت إلى نتائج من أبرزها:

- وجود المكان في الشّعر الجزائري الحديث يعبّر عمّا يتعلّق بالهويّة الجزائريّة وخاصّة وأنّ البلد كان مستعمرًا.

- وَلَهُ الشّاعر الجزائري في العصر الحديث بالمكان الذي مثّل له الحضور ولو كان مبعدًا عنه.

- احتلال البدو بصحاريه وقفره وروضه مساحة كبيرة من القصيدة على حساب الحضر.

- الاشتغال على الأضداد في القصيدة، بما يحمله المكان في البدو من قيّم ومعاني وما تقابلها في الحضر، وموقِف الشّاعر منها.

- الحضر لمْ يُذكرْ إلاّ قليلا كونه كان مكان عبور وانتقال؛ على عكس البدو الذي مثّل مكان العيش والإقامة.

- توافق توظيف الأماكن البدويّة بكثرة بنمط العيش المعتاد لدى الأمير.

- هدوء الأمير وتسليمه لقضاء الله وقدره، لتوظيفه للبدو بما يحتويه، وقلّة اضطرابه للتّقليل في استعمال مكان الحضر وجعل المقابل يدل عليه.

أما عن المقترحات التي تبلورت وأنا أعالج إشكاليّة الموضوع هي أنّ:

- يبدو وقوع الشّاعر –من خلال قصيدته- في أزمة التّوفيق بيْن مجتمعيْن متباينيْنِ من حيث المبادئ والأفكار، مجتمع الباديّة وعاداته وتقاليده، ومجتمع المدينة ونظمه وقوانينه، لكنّه يتحاشى الزّيف والتّدليس ويتمسّك بالوطنيّة لما لاقاه من ويلات الاستعمار.

- عدم تشابه ملامح شخصيّة البدوي المحارب الوَرِع مع ملامح شخصيّة ساكن المدينة الفرنسي، وهذا طبيعي لجسامة المهمّة التي سخّر نفسه لتحقيقها.

- يخْلقُ النُّزوع إلى مكان دون غيره (البدو أو الحضر) المستويات الطّبقيّة، والاختلافات الاجتماعيّة، إلاّ أنّ الرّجل لم يرم إلى هذا؛ وإنّما كان يسعى إلى نُصْرَةِ قضيّة بلده العادلة.

**5. الهوامش:**

**(1) الأمير عبد القادر الجزائري: "ديوان الشّاعر الأمير عبد القادر الجزائري"، (1807- 1883)، جم وتح، شر وتق، د. العربي دحو، ثالة 2007، ط 03، ص 50 - ورد في الهامش -**

**(2) جمال الدّين محمّد بن مكرم ابن منظور: "لسان العرب"، مجلد 13، دار صادر، بيروت، ص 414.**

**(3) جمال الدّين محمّد بن يعقوب الفيروز آبادي: "القاموس المحيط"، مؤسسة الرّسالة، 1998، ط 06، بيروت- لبنان، ص 1235.**

**(4) حسن مجيد العبيدي: "نظريّة المكان في فلسفة ابن سينا"، مراجعة عبد الأمير الأعسم، دار الشؤون الثقافية العامّة، بغداد، 1987، ط 01، ص 19.**

**(5) (المرجع نفسه)، ص 179.**

**(6) غاستون باشلار: "جماليات المكان"، تر: غالب هلسا، المؤسسة الجامعيّة للدّراسات والنّشر والتوزيع، (1404هـ – 1984م)، بيروت- لبنان، ط 02، ص 31.**

**(7) يسين نصير: "إشكاليّة المكان في النّص الأدبي"، دراسة نقديّة، دار الشؤون الثقافية العامّة، آفاق عربيّة، 1986، بغداد، ص 08.**

(8) عبد الرحمن بن محمّد ابن خلدون،: "مقدمة ابن خلدون"، حقق نصوصه وخرّج أحاديثه وعلّق عليه، عبد الله محمّد الدّرويش: داريعرب، (1425هـ – 2004 م)، ط 01، ص 132.

(9) السيد محمود شكري الألوسي البغدادي، "بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب"، المطبعة الرّحمانيّة، مصر، شرح، تصحيح، ضبط محمد بَهَجة الأثري، ج 03، ط 02، 1343هـ- 1925م، ص425.

(10) ابن منظور: "لسان العرب"، مادة وطن –بتصرف- (مصدرسابق)، ص 151.

(11) موسوعة البحوث الشاملة.

6- baht21.blogspot.com /2008/12/blog – post – 23.htm/?m = 1

(12) جيلاني ضيف: "الأمير عبد القادر الجزائري بين الدّولة والأمّة"، دار أسامة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، 2013، الجزائر، ص 84.

ينظر؛ محمد بشير بويجرة: "الأمير عبد القادر، رائد الشعر العربي الحديث"، منشورات دار القدس العربي،2009، ط 03، وهران، ص 137- 138.

(13) ينظر؛ (المرجع نفسه)، ص 164.

(14) محمد بشير بويجرة: "جدليّة العبقريّة والمعاصرة عند صاحب الإمارة قراءة في مسار الأمير عبد القادر"، دار القدس العربي، 2010، وهران، ص 54.

(15) ذهبت إلى هذا المعنى "خالدة سعيد" "فعودة الكاتب إلى الطّبيعة يعني في حدّ ذاته عودة إلى الفطرة والذّات، وهي إذن إعادة الاعتبار، إلى العفويّة والحريّة، هي تجاوز للتّقاليد بصيغتيْه الاجتماعيّة والفنيّة". خالدة سعيد "حركيّة الإبداع دراسات في الأدب الحديث"، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ط 03، 1406- 1986 بيروت- لبنان، ص28.

(16) الأمير عبد القادر الجزائري: "ديوان الشاعر الأمير عبد القادر الجزائري"، (المصدر السّابق)، ص 50.

(17) (المصدر نفسه)، ص 50.

(18) ينظر؛ عشراتي سليمان: "الأمير عبد القادر الشّاعر، مدخل إلى تحليل الخطاب الشّعري، في محطة الما بعد"، أطفالنا للنّشر والتّوزيع، دار القدس العربي للنّشر والتوزيع، 2011، ط 01، ص 166.

(19) الأمير عبد القادر الجزائري: "ديوان الشاعر الأمير عبد القادر الجزائري"،المصدر السّابق، ص 50.

(20) في هذا يقول "عاستون باشلار": الواقع أنّ الخيال يزيد حدّة حواسنا. إنّ اليقظة الخياليّة تهيئ انتباهنا للاستجابات الفوريّة. غاستون باشلار، "جماليّات المكان"، (المرجع السّابق)، ص 96.

(21) في ظلّ توظيف الكاتب للطّبيعة لجمالها يرى "أحمد طالب" تأثيرها إلى حدّ اتّخاذِها عنصُرا مُلْهما لصاحِبِها في العمليّةِ القَصَصِيَّةِ. "تعلّق الكُتَّاب تعلّقا عميقا وحيويّا بالطبيعة، أي بالرّيف وما يزخر به من مناظر جميلة ساحرة ولكن المُهِمُّ في الأمر أنّهم لم يتّخِذوا الطبيعة إطارا خارجيّا إضافيًّا بل صنعوا منها عنصرا أساسيًّا قائمًا بذاته في البناء القصصي، يسْهِمُ مساهمة فعّالةً في إثراء الأحداث وتطويرها". أحمد طالب: "جماليات المكان في القصّة القصيرة الجزائرية"، دار الغرب للنّشر والتّوزيع، وهران، 2005، ص26.

(22) الأمير عبد القادر الجزائري: "ديوان الشاعر الأمير عبد القادر الجزائري"، (المصدر السّابق)، ص 50- 51.

(23) (المصدر نفسه)، ص 50- 51.

(24) عندما أبلغه الكولونيل دوماس بأوامر الملك في الهجرة إلى فرنسا وقال له على لسان الملك: إنّ فرنسا مستعدّة لأن تمنحكم أراض شاسعة وقصورًا تعيشون فيها مكرّمين، ويستطيعون أفراد حاشيّتك امتلاك مزارع يعملون فيها طيلة حياتهم إلى جانبك، فرفض الأمير قائلا: لو ملّلتموني فرنسا كلّها فلن أقبلها عن وطن عربي إسلامي أعيش فيه، ولو وضعتم فرنسا كلّها في برنسي هذا وفرشتموها بالديباج لنفضته إلى الأمواج التي تضرب جدران هذه البارجة العربيّة. من كتاب: محمّد على الصّلابي: "سيرة الأمير عبد القادر- قائد ربّاني ومجاهد إسلامي"، دار المعرفة ، بيروت، لبنان، ص 267.

(25) السيد محمود شكري الألوسي البغدادي، "بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب"، (المصدر السّابق)، ص425.

(26) غاستون باشلار: "جماليّات المكان"، ترجمة: غالب هلسا، (المرجع السّابق)، ص 181.

(27) (المصدر نفسه)، ص 181.

(28) (المصدر نفسه)، ص 182.

(29) محمّد توفيق الضوي: "مفهوم المكان والزّمان في فلسفة الظاهر والحقيقة- دراسة في ميتافيزيقا برادلى"، منشأة المعارف بالإسكندرية، 2003، ص 89.

(30) محمّد السيّد محمّد على الوزير: "الأمير عبد القادر الجزائري ثقافته وأثرها في أدبه"، سحب الطباعة الشعبيّة للجيش، 2007، الجزائر، ص 189- 190.

(31) ينظر؛ مختار علي أبو غالي: "المدينة في الشعر العربي المعاصر"، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1955م الكويت، ص 05.

(32) ينظر؛ محمد ابن مكرم المعروف بابن منظور: "مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر"، ج 26، تح: أحمد راتب حموش، محمد ناجي العمر، دار الفكر، دمشق، ط 01، 1409- 1984، ص 94- 95.

(33) محمد العيد آل خليفة، "ديوان محمد العيد آل خليفة"، دار الهدى عين مليلة الجزائر، صفحة: 55 _ 56.